

المطلب الأول: أهم القبائل والبيوتات المستوطنة

عندما أسكن سيدنا إبراهيم ﷺ زوجته هاجر وولده إسماعيل في وادي مكة دعا الله تعالى أن يكون ذلك الوادي مهوى الأفئدة، وقد حكى القرآن الكريم تلك الدعوة فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...﴾ (1)، فحفلت مكة المكرمة بكثير من القبائل، والبيوتات الوافدة لأجل المجاورة.

ومن أبرز تلك القبائل الأشراف وهم ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما وقد حكم الأشراف الحسنيون مكة منذ 358هـ (2) حتى كان آخرهم الشريف الحسين وابنه علي.

وقد كان أهل مكة يُعَظِّمونَ الأشراف سواءً كانوا من حُكام مكة أم غيرهم، وذلك إكراماً لنسبهم الشريف المتصل برسول الله ﷺ.

ومن أبرز البيوت العلمية التي سكنت مكة من الأشراف الحسنيين الذين لم يتولوا حكم مكة بيت المالكي، وأبرزهم السيد محمد المالكي، ووالده السيد علوي المالكي، وجدّه السيد عباس المالكي، وأبي جدّه السيد عبد العزيز المالكي، وجدُّ جدّه السيد محمد المالكي، وكلُّ منهم علامة فاضل، وسيد عظيم البركة، وأصلهم من المغرب قدم أجدادهم منذ مئات السنين فاستوطنوا مكة، وكان الملوك يحترمونها ويُجلُّونها، فلما تمّ تعمير البناء الذي فوق مقام إبراهيم أيام الملك فيصل رحمه الله، حضر بنفسه لافتتاح البناء، وكان السيد علوي حاضراً فنادى على أحد أصحابه وقال له: اقبض بيدي لنسلم على الملك فيصل، فاخترق الزحام والناس يوسعون له من غير مدافعة، فلما رآه الملك فيصل أقبل عليه وقال له: أهلاً بـسيدنا، أهلاً بعالمنا، وصافحه عند المقام (3).

ومن بيوت مكة آل الشيباني، وهم ذرية شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الحنظلي من أولاد عبد الدار، وقد ظل بيتهم خالداً بمكة كما ظلت خدمتهم في الحجابة خالدة تالدة، مصداقاً لقوله ﷺ: ﴿خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم﴾ (4) *.

(1) سورة إبراهيم، من الآية: 37.

(2) السباعي، تاريخ مكة: 220/1.

(3) المالكي، عباس، صفحات مشرقة: 154.

(4) الطبراني المعجم الأوسط: 156-55/1 رقم 488.

* عن عثمان بن طلحة ﷺ قال: ﴿جئنا نفتح الكعبة في الجاهلية الاثنتين والخميس، فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت عليه ونلت منه فحلم عني، ثم قال: يا عثمان، لعنك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضغه حيث شئت، فقال: لقد هلك قريشٌ وذلت! فقال: بل عمرت يومئذٍ وعزت، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعاً فظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان

وإذا كان بعضهم قد هاجر إلى الآفاق في مناسبات عدة من عهود التاريخ، فإن المعروف أن نسلهم لم ينقطع عن مكة⁽¹⁾.

ومنها آل نائب الحرم ونيابتهم في الحرم هي نيابة عن أمير البلاد في شؤون المسجد ومراقبة موظفيه من خدم ومؤذنين وأئمة، وهي غير مشيخة الحرم التي كان يتولاها والي جدة من الأتراك في عهد العثمانيين⁽²⁾.

والذي يلاحظ أن أكثر الأسر التي وفدت في العهد العثماني كانت من المصريين والمغربيين وأهالي الشام والأتراك، كما لم تنقطع هجرة السوريين والأكراد والسودانيين، في حين كان العراقيون والإيرانيون من أقل الأجناس هجرة إلى مكة⁽³⁾.

ومن أشهر المغاربة القدماء بيت حميدان الذي أنشأ بستاناً بجوار بركة الماحل⁽⁴⁾.

ومن أشهر الأسر التركية بيت الداريزلي، والقرملي، وكوشك، والخشيفاتي، والوشكلي، وغيرهم⁽⁵⁾.

أما الهند وجاوى فقد جاءت هجرتهم إلى البلاد متأخرة كثيراً عن غيرهم فقلما تجد في عهود مكة السالفة بيتاً مجاوراً من الهند أو جاوى، لبعد المسافة بينهم وبين هذه البلاد خصوصاً قبل استعمال السفن البخارية في المواصلات إلا أنهم عندما شرعوا يهاجرون إلى مكة ما لبث أن طغى تعدادهم على الجاليات الأخرى، ومن أقدم تلك الجاليات المهاجرة من الهند بيت الطيب،

وملائكة، وشمس، وقطب، وجلال، وخوج، وعبد الخالق، وحبيب، وخوقير الدهلوي، والبوقرية، وميرا، وفدا⁽⁶⁾.

واشتهر من بيوت الجاويين: بيت

البتاوي، والسмбаويا، وزيني، والمنكابو، والقستي، والفتيانة، والبوقس، والفلمبان، وقدرس، وشمس، والقطاني⁽⁷⁾.

يوم الفتح قال كالي: يا عثمان انت بالمفتاح، فاتيته به، فأخذه، ثم دفعة إلي وقال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، فلما وليت ناداني، فرجعت إليه، فقال: ألم يكن الذي قلت لك، فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة. لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت. فقلت: بلى، أشهد أنك رسول الله. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت: 571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت: ج38/ص383، الصالح، محمد بن يوسف الشامي (ت: 942هـ)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عدة باحسين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر: ج5/ص244.

(1) السباعي، تاريخ مكة: 640-641.

(2) المرجع نفسه: 641/2.

(3) ينظر: المرجع نفسه: 641/2-642.

(4) المرجع نفسه: 641-642.

(5) السباعي، تاريخ مكة: 641/2-642.

(6) المرجع نفسه: 642-643.

(7) المرجع نفسه: 643/2.

ومن الجاليات التي اتسعت هجرتها إلى مكة جاليات الحضرميين، ولعله كان رائد السابقين منهم النشاط العلمي ثم أضيف إليه النشاط التجاري فازداد طلاب الرزق من كبار التجار إلى صغار الباعة والمستخدمين، ثم اتسعت هجرتهم وأصبح المجاورون يكادون يستقلون بأكثر حوانيت البيع في البلاد، وانتفع الأهالي بخدمة صغارهم في البيوت ومن أشهر عائلات الحضارم: بيت باجنيد وباحارث، وباتاجة وبناعمة والعادة، وباحكيم، وبازرعة، وباعيسى، وباعشن⁽¹⁾.

المطلب الثاني: العادات والتقاليد

1- حبّ الخير للآخرين

من عاداتهم الطيبة التي كانت مُتَرَسِّخَةً في نفوس أصحاب المحال التجارية المتجاورة، أنّ أحدهم إذا استفتح يومه بمشتري، ثمّ جاءه آخر، ولم يبعْ جاره فإنّ صاحب المحل يبعثه إلى جاره الذي لم يبعْ بعدُ لِيُطِيبَ نفسه، قائلاً: اذهب إلى جاري فإنّه لم يبعْ بعد، وكانوا يلتزمون بتلك العادة التزاماً قوياً، حتى إنّ أحدهم استعمل عاملاً في محلّه فباع مرتين قبل أن يبيع جاره شيئاً، فطرده صاحب المحل لعدم التزامه بذلك الخلق التجاري الإسلامي⁽²⁾.

قلت: وهذه العادة هي من صميم الإيمان، لقوله ﷻ: لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ

لنفسه ﷻ⁽³⁾، والمال عزيزٌ على الإنسان، فلولا أنّ لديه واعظاً من قلبه ما فعل ذلك.

ولست أدري بعد أن أصبح للدولار والريال طعمه الخاص أبقى أهل مكة على تلك العوائد الطيبة أم غادروها!، وظنّي بجيران الله وأهله أنّهم باقون بعقهم التاريخي على ذلك.

2- الرّكبُ المكيّ

(1) المرجع نفسه: 643/2.

(2) بتصرف من: www.makkawi.com.

(3) البخاري، الصحيح: 1/140 رقم 13، ومسلم، الصحيح: 1/67 رقم 45.

وهو تقليدٌ سنويٌّ، ينطلق فيه المكيّون لزيارة النبي ﷺ إذ يبدأ الراغبون في الزيارة بإعداد دوابهم من الحمير، وكانوا أوّل الأمر يستعملون الحمير اليمانية، ولكنهم وجدوها قصيرة لا تنفع إلا في نقل الأحجار عبر الجبال والمرتفعات، فأعرضوا عنها إلى الحمير الحساوية⁽¹⁾.

وكانت الرحلة الأولى للركب المكيّ تنطلق مع اليوم الأول من ربيع الأول، وهو اليوم الذي بدأ فيه النبي ﷺ هجرته منطلقاً من الغار⁽²⁾.

كان يوم الرحيل يوماً مشهوداً يتجمّع في ليلته الراغبون في صحبة الركب في "حي الشهداء" وهو يُعرف اليوم بـ"حي الزاهر" حيث يحفّهم من استطاع من ذويهم للوداع، ومن لم يستطع جاء إليه المسافر لتوديعه، وكم كان أهل مكة يشاهدون السيد عباس المالكي وهو يمرّ بجوار الحرم ويودّع والده السيد علوي في حلقة العلم بالمسجد الحرام حيث يحدث الناس، فيدعو له بالتوفيق ويوصيه بالتقوى والعمل الصالح في رحلته⁽³⁾.

ولكلّ ركب قائد يُسمّى شيخ الركب، وحامل لراية الركب يقف عن يمين الشيخ، وحادي يُطرب الركب بأنغامه الشجية في مدح النبي ﷺ.

وليست الحمير هي المركب الوحيد، فقد يستعملون الإبل ولكنّ الغالب هو الحمير، وكان أجود الدواب من الإبل والحمير ما زار صاحبه على ظهره مدينة الرسول ﷺ وبذلك تزداد قيمته مادياً ومعنوياً، حتى إنهم كانوا يمدحونها بقولهم:

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلْعَنَ مُحَمَّدًا
فَظُهُورَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ⁽⁴⁾

وكان الحمارُ يرفقون بالحمير ويعتنون بها عناية فائقة فكانوا يركبونها في السير حين خروجهم من المعالم، وحين يُصحرون ينزلون عنها لئلاّ تتعب وتكلّ في وسط الطريق وإذا أرادوا السير السريع ضمّروها بإعطائها القليل من العلف والماء، وبايقافها هنيهة خالية الظهر من البردعة، حتى إذا ما قربوا من مدينة الرسول ﷺ ووصلوا المُفَرِّحات فرحوا بقرّبهم من الرسول ﷺ -ومن هنا سُمّي المكان بالمُفَرِّحات- لأنّ الركب يفرح، وينتشي حين يرى معالم المدينة المنورة من هذه المنطقة، وليس البشر فقط هم من يفرح ويحسّ، بل إنّ

(1) ينظر: د. أنور ماجد عشقي: الركب المكي تقويم التراث لا تهويمه، ط1، مركز الشرق الأوسط للبحوث والدراسات القانونية، الرياض، 1423هـ-2002م: ص31-32.

(2) عشقي، الركب المكي: 34.

(3) المرجع نفسه: 34.

(4) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 371.

دوابهم تحن وتتأثر أيضاً، فقد ذكر بعض أهل الركب أنّ الدواب حينما تقترب من المدينة المنورة تزيد سرعة من تلقاء نفسها دون حثٍّ من السائس وتقوى على التحمل وكأنّها نهلت وعَلّت، أو غُلّفت وضُمرت وذكروا أنّ ناقّةً رُئيت أمام الحجرة النبوية وهي مادّة عُنُقها إلى شبّاك المصطفى ﷺ ويخرج منها صوت كالنحيب والأنين، أو كأنّها تُساق إلى المنحر، وهي ترغو رغاءً شديداً ومدامعها سائلة، وفي ذلك الشوق والجذب يقول أحدهم⁽¹⁾:

وَسَالَتْ مِنْ مَدَامِعِهَا سَحَابٌ	أَلَمْ تَرَهَا وَقَدْ مَدَّتْ خُطَاهَا
فَقَائِدُ شَوْقِهَا لِلْحَيِّ جَاذِبٌ	فَدَغَ جَذْبَ الزَّمَامِ وَلَا تَسْقُهَا
فَإِنَّكَ فِي طَرِيقِ الْحُبِّ كَاذِبٌ	فَهُمْ طَرِباً كَمَا هَامَتْ وَإِلَّا
قَبَابُ الْحَيِّ لَاحِتٌ وَالْمُضَارِبُ	أَمَا هَذَا الْعَقِيقُ بَدَا وَهَذَا
نَبِيٌّ نَوْرُهُ يَجْلُو الْغِيَاهِبُ	وَتِلْكَ الْقُبَّةُ الْخَضْرَاءُ فِيهَا
وَقَدْ جَاءَ الْهَنَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⁽²⁾	وَقَدْ صَحَّ الرِّضَا وَدَنَا التَّلَاقِي

فإذا وصل الركبُ إلى المسجد النبوي وقف الزوار بباب السلام وانشدوا:

يَهْزُ الشُّوقُ أَوْتَارَ الْفُؤَادِ	مَنْ الْبَلَدِ الْحَرَامِ إِلَيْكَ جِئْنَا
وَأَنْتَ الذَّخْرُ فِي يَوْمِ الْمَعَادِ	حِيَارَى مِنْ ذُنُوبٍ أَثْقَلْتَنَا
نَلُودُ بِهِ فَنَحْظِي بِالْمَرَادِ	فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ جَاهاً
عَلَى الْأَيْكَ الطُّيُورُ بِكُلِّ وَادِي	عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّي مَا تَغْنَّتْ
وَمَنْ فِي ظِلِّ شِرْعَتِهِمْ يُنَادِي ⁽³⁾	يَعْمُ الْآلَ وَالْأَصْحَابَ جَمْعاً

قال محمد عمر رفيع: (الزيارة إلى المدينة المنورة لا زالت تُمارس من الأهليين، ولكن على غير ما

وصفت، فقد تتألف جماعة، وقد تكون أسرة أو عائلة يستأجرون سيارة توصلهم إلى المدينة في وقت لا يزيد عن ثماني ساعات، فيزورون ويقضون في المدينة من الوقت ما أرادوا)⁽⁴⁾.

وكلام الأستاذ رفيع عن أواخر القرن الرابع عشر الهجري، أمّا في مطلع القرن الخامس عشر ولاسيّما بعد انتهاء العقد الأول منه فقد انتشرت السيارات السريعة، بل وحتى الطائرات، فأصبح الوقت بلا شك أقل مما ذكره بكثير.

(1) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 359.

(2) ابن الديبع، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت: 944هـ): مولد الحافظ ابن الديبع، إخراج وتعليق: محمد بن علوي المالكي الحسني، مطبعة السعادة، مصر: ص 21-22.

(3) أبكر، المرجع السابق: 371.

(4) مكة في القرن الرابع عشر الهجري: 122.

قلت: أمّا زيارة النبي ﷺ فقد تعاضدت الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على الحث عليها⁽¹⁾، فمن الكتاب قوله تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾⁽²⁾، ومن السنة قوله ﷺ: ﴿من جاءني زائراً لا يهّمه إلاّ زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له شفيعاً﴾⁽³⁾، وأمّا الإجماع فقد نقله القاضي عياض⁽⁴⁾، وأمّا القياس، فإنّه لما جازت زيارة عموم القبور، بقوله ﷺ: ﴿كنتُ نهيّتكم عن زيارة القبور فزوروها﴾⁽⁵⁾ فمن باب أولى تجوز زيارة النبي ﷺ، وأمّا شهر رجب فهو شهر مُعَظَّم قال ابن رجب الحنبلي (ت: 795هـ) (شهر رجب مفتاح أشهر الخير والبركة)⁽⁶⁾.

وخلاصة ذلك أنّ هذه العادة الطيّبة من حيث الفعل والتوقيت لها أصلٌ في الشريعة الغراء، إذ اختير فيها العمل الصالح في الزمن الصالح.

3- الشعبة

في الأيام الأخيرة من شهر شعبان المعظم يكثرون من القيلات، فتشترك كل جماعة في إقامة مآدب أمّا خارج مكة أو في ضواحيها، أو في بيت أحدهم ويطلقون على الجماعة "البشكة"، فيصنعون ما يطيب لهم من أنواع الأطعمة ويقضون نهارهم وليلهم في السمر والألعاب التي تعتادها البشكة، ممّا يثير البهجة في النفوس وتناسي متاعب الحياة وهم يصنعون ذلك فرحاً بقرب شهر رمضان الكريم⁽⁷⁾.

4- إرسال الأولاد إلى البادية

ومن عوائد أشرف مكة أنّ كبراءهم يُرسلون أولادهم وهم في نعومة أظفارهم إلى البادية، وخصوصاً إلى قبيلة عدوان التي توجد في شرق الطائف، وهي قبيلة قريبة من "سعد" التي استرضع فيها رسول الله ﷺ، فينشئون فيها على البداوة النائمة مع الأمية الصرفة حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة، وقد

(1) المالكي، محمد بن علوي، شفاء الفؤاد بزيارة خير العباد، ط1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1411هـ-1991م: ص7.

(2) سورة النساء، آية: 64.

(3) الطبراني، المعجم الأوسط: 5/16 رقم 4546، والمعجم الكبير: 12/291 رقم 13149.

(4) ينظر: عياض، الشفا: 2/82.

(5) مسلم، الصحيح: 2/672 رقم 977.

(6) ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف: 126.

(7) أبكر: صور من تراث مكة المكرمة: 300 بتصرف.

تعلّموا بعض لغات القبائل، وحفظوا من أشعارهم وأخذوا من طبائعهم، وأحسن ما يُرى فيهم الفروسية والحرية والجرأة في القول والفعل، وهذه العادة قديمة جداً في القوم⁽¹⁾.
قال الشيخ محمد الغزالي مُعقِّباً على إرسال النبي ﷺ للبادية: (وتنشئة الأولاد في البادية ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوّها الطَّلَق وشعاعها المرسل، أدّى إلى تركية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف. إنّها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة، من بيوت متلاصقة، كأنّها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفّس العميق، والهواء المنعش. ولا شكّ أنّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود- فيما يعود- إلى البُعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنّع، ونحنُ نُقدّر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفِساس مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التربية يودّ لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وُجدَ فيه، ويبدو أنّ هذا حلم عسر التحقيق)⁽²⁾.

5- الاحتفال بنجاح الصبيان

ومن عوائدهم الطيبة أنّهم كانوا يحتفلون احتفالاً كبيراً بنحتم أولادهم للقرآن الكريم، أو بحفظهم لبعض أجزاءه، إذ يهيئ أهل الصبي احتفالاً يمشي فيه أولادُ الكتّاب ليدرّعون شوارع مكة هازجين بأناشيدهم، ويمضي الناجح في طليعتهم ممتطياً جواداً زِينت جوانبه بالحرير والقصب حتى إذا انتهى هذا العرض انصرف التلاميذ إلى بيوتهم ويسمّون هذا الحفل "أصرافه" كما يسمّون غيره "اقلابه" لأنّه انقلب من مرحلة إلى أخرى⁽³⁾.

قلت: ومبدأ الثواب والعقاب من مبادئ التربية الإسلامية وقد حث علماء الإسلام على تشجيع الصبيان، قال الإمام الغزالي: (ثمّ مهما ظهر من الصبي خُلُقٌ جميل وفِعْلٌ محمود فينبغي أن يُكرّم عليه، ويُجازى عليه بما يفرح به، ويُمدح بين أظهر الناس)⁽⁴⁾، ويظهر لي أنّ لهذه العادة وما شابهها آثار نفسية طيّبة على الصبي وهي:-

(1) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين: 335/9.
(2) الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ط4، دار القلم، دمشق، 1409 هـ- 1989: ص60-61.
(3) وجدي، دائرة معارف القرن العشرين: 337/9، والسباعي، تاريخ مكة: 656/2.
(4) إحياء علوم الدين: 73/3.

- 1- تشجيعه على التفوق الدائم.
 - 2- غرس حب العلم في نفسه.
 - 3- بناء شخصية قوية من خلال إشعاره باهتمام الآخرين به، ومنحه الثقة بالنفس.
 - 4- تقوية رابطة المحبة بين الصبي وأهله لعنايتهم به.
- ولا يخفى أن ذلك كله يصب في خدمة المجتمع المكي.

المطلب الثالث: الموارد الاقتصادية

حظيت مكة المكرمة بدعوة أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ► بقوله ► رَبِّ اجْعَلْ هذا بلداً آمناً وارزُقْ أهله من الثمرات (1)، ولما قدم ► مرّة ثانية إلى زوجة سيدنا إسماعيل ► وقال: ما طعامكم وشرابكم؟، قالت: اللحم والماء، قال: هل حبّ أو غيره من الطعام؟، قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم والماء (2)، ولذلك فإنّ لحوم مكّة مباركة، وكذلك ماؤها والبركات تنهل عليها من كل حدبٍ وصوب، وقد ذكر سبحانه وتعالى ما منّ به على أهل مكة من واردات بقوله ► أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (3)

وفيما يلي أبرز الواردات الاقتصادية:

- 1- التجارة: هي من أعرق الموارد وأقدمها داخلية، وخارجية حتى قيل: إنّ الله أهلك الفيل لتألف قريش الخروج إلى التجارة ولا يُعتدى عليها (4)، قال محمد حسين هيكل: (وقد كانت مكانة مكة التجارية قبيل الإسلام وفي عهده الأول عدل مكانتها الدينية وكانت مُلتقى تجارة الغرب والشرق وإنّما الفرق بين يوم مكة وأمّسها أنّها كانت أمس طريق التجارة، فكان أهلها يذهبون في رحلة الشتاء إلى اليمن يجيئون منها

(1) سورة البقرة، من الآية: 126.

(2) الأزرقي، أخبار مكة: 57/1.

(3) سورة القصص، من الآية: 57.

(4) ينظر: القرطبي، تفسير: 137/20.

ببضاعة الجنوب ليتجروا بها في الشمال، وبتجارة الشرق ينقلونها في رحلة الصيف إلى الغرب وإلى الشام يُصَرِّفون فيها ما جاءوا به من اليمن، ويجيئون بألوان أخرى من التجارة مكانه. أمّا اليوم فالتجارة تجيء إلى مكة وتوزّع على الحجاج في أسواقها من غير أن يكون لمكة في ذلك أيّ نشاط إيجابي، بل تنقل البواخر التجارة من أقصى الأرض إلى مكة ليتولى أهل مكة بيعها للذين فرّضوا حجّ بيت الله الحرام، بريح هو مصدر حياة أهلها إلى جانب ما يتبرّع به المحسنون للبلد الحرام من أرزاق. وقد أصبح الكثير من مواد التغذية نفسها كالفاكهة والأطعمة المصنوعة من "بسكويت" وجبن وما إليها، يرد إلى مكة من الخارج كما يرد غيره من البضائع. أمّا المواد الطازجة فتزد من وادي فاطمة ومن الطائف⁽¹⁾.

وفي أواخر الدولة العثمانية كانت تجارة الدخان رائجة وكانت الأمراء تنتفع كثيراً من المكوس التي تفرضها على تلك التجارة، وفي بداية العهد السعودي تشدّد العلماء النجديون في تحريم شرب الدخان، فبدأت إيرادات المكوس (الجمارك) تنخفض بسبب منع شربه سواءً على الوافدين أو أهل البلد، فتأثرت بذلك ميزانية البلد فالتهمت الحكومة الفتوى بذلك عند عالم نجد عبد الله بن بلهيد، فأفتى بأنّ الدخان لا يسكر كثيره ولا قليله فهو غير مُحَرَّم، وإن كان مكروهاً، وبذلك أبيع التدخين لمن يشاء من الحجيج، وعادت موارد المكوس منه إلى ما كانت قبل تحريمه⁽²⁾.

وقال الدكتور هيكل أيضاً: (وتجارة الغرب ذات رواج اليوم في أسواق مكة، حتى ما يكاد الإنسان يجد من صناعة مكة أو صناعة بلاد العرب فيها شيئاً. وإذا قلت الغرب، قلت: اليابان أيضاً. فالمصنوعات اليابانية منتشرة بأثمان زهيدة تدعو إلى أشدّ الرغبة فيها. ولقد بلغ من حدّق الصناعة أن صارت اليابان وصار الغرب يبعث إلى مكة بالأشياء التي يبتاعها المسلمون للتبرّك بها على أنّها من البلد الأمين. فالسُّبح والعطور تصدر من مصر مصنوعة في خان الخليلي والتربية خلا ما يصنع من مرجان إيطاليا. والمباخر ورشاشات العطر والمكاحل تصنع في الخارج، وقلّ منها ما يُصنع في بلاد العرب. وهذا كله تجده في سوق المسعى بين الصفا والمروة، وتجده في السويقة أو السوق الصغيرة كما يسمونها معروضاً

(1) هيكل، في منزل الوحي: 135-136.
(2) المرجع نفسه: 147-148 بتصرف يسير.

مع الأقمشة المختلفة، يُقبل عليها المسلمون من شتى أقطار الأرض ويُصيّون منه ما يعودون به إلى أهلهم في هذه الأقطار، ليكون عندهم بركة يُحافظون عليها ويحتفظون بها⁽¹⁾.

الغرفة التجارية

ولما بدأت الحركة التجارية تنشط نشاطاً قوياً، وتتسارع خطاها كان لا بُدّ من تنظيم كلّ ذلك بما يضمن المصلحة العامة و(إيجاد الوسائل التي من شأنها تنمية العلاقات الاقتصادية بمكة المكرمة وتوعية المستوردين بما يتطلّبونه من معلومات وأنظمة سائدة في الدول المُصدّرة وإيجاد المصادر اللاتقة للسلع اللازمة وهكذا فقد قدرت الدولة ضرورة إيجاد الجهاز الاقتصادي الشعبي، وأعطته صفته وكيانه، وأصدرت ترخيصاً بإنشاء الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة في عام 1368هـ، وقد وضعت النظم الإدارية الداخلية وصلاحيات الغرفة وجهازها بما يكفل لها أداء مهمتها في خدمة العاملين في المجال الاقتصادي، أسوة بما هو معمول به، وما تتمتع به الغرف التجارية في الدول المتطورة، بل حرصت الدولة على مدّ العون المادّي⁽²⁾.

ولا يخفى على كل من زار مكة المكرمة أو اطّلع على أخبارها من القنوات الإعلامية، مدى التطوّر التجاري، إذ أصبحت المشاريع التجارية تُقام بمليارات الريالات.

والتجارة التي لا تنقطع على مرّ العصور، وهي في تضاعف ونماء هي الأعمال الصالحة فالحسنة بمائة ألف والصدقة بمائة ألف والصلاة بمائة ألف، وهذه هي التجارة التي لن تبور.

2-الصناعة: وكانت في مطلع القرن الرابع عشر الهجري عبارة عن صنائع يدوية

غالباً، مثل: الحدادة، والسمكرة وصناعة الأحذية، وصناعة السبح، فقد كان بمكة ما لا يقل عن عشرين مصنّعاً لعمل السبح من مختلف الخامات والأخشاب، وهي صناعة لموسم حج، ليس لها رواج في

(1) هيك، في منزل الوحي: 135.

(2) الكردي، التاريخ القويم: 146/2.

غيره، كما هو الحال في الصناعات الأخرى التي تروج على مدار السنة، ويطلق المكيون على مصنع السبح وغيرها من المصانع اسم "ورشة"⁽¹⁾.

ولكن هذه الصناعة اضمحلت أو كادت، ولم يبق مِمَّا يُصنع بمكة سوى نوع منها يسمّى "اليسر"، لأنّ اليسر لا يوجد في الغالب -إلاّ في البحر الأحمر، ولولا ذلك لما بقي لصناعة السبح أثر يذكر، ويرجع سبب اضمحلال تلك الصناعة إلى ظهور مادّة البلاستيك فأصبحت الدول المنتجة لهذه المادة تصنع السبح وترسلها إلى مكة⁽²⁾.

وفي العهد السعودي أنشئ أول مصنع للبلاستيك أنشأه الشاب المكّي محمد أحمد بوقري في عام 1382هـ بمنطقة الشهداء بأحدث الآلات المستعملة في هذه الصناعة، وكانت إقامة هذا المصنع مفاجأة قوبلت بالكثير من الشكّ في القدرة على البقاء أمام تيار الاستيراد من البلاد المجاورة، ولكن عزيمة الشباب والرغبة في التضحية وبناء حياة أفضل غيّرت هذا المفهوم، وقد صار هذا المصنع الضخم خطراً على تسويق ما يستورد من أصناف في مجال إنتاجه الواسع الذي شمل المسابح والأدوات المنزلية وأدوات الكهرباء، وعلب الحلوى، وأدوات المدارس، وقطع الأثاث وغير ذلك كثير في كميات أغرقت الأسواق بأسعارها الزهيدة⁽³⁾.

ومن الصناعات التي اضمحلت أو كادت صناعة الفخار فلم تعدّ حاجة إلى شراب الماء والأزيار وما شاكل ذلك، بسبب ما جدّ من وسائل التبريد ومصانع الثلج، فقد كان معمل الفخار يصنع دواليب في أعلى مكة بمحلة "الخرمانية" بالمعابدة، وكانت دكاكين باعة الفخار جمهرتها في محلة "سوق الليل" على الشارع العام فلم يعد لها أثر هنالك، ولم يعد سوى دولاب أو دولابين رمت به البلدية أو أمانة العاصمة، كما تسمّى إلى أقصى البلدة من جهة الرصيفة⁽⁴⁾.

(1) ينظر: رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري: 141.

(2) ينظر: المرجع نفسه: 142.

(3) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 140.

(4) رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري: 142-143.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أوّل مصنع للثلج في مكة أقيم في عهد الشريف حسين وهو : (مصنع الحاج نسيم الشامي أقامه في سنة 1338هـ تقريباً بجهة سوق المُعلّا في طرف مقبرة المُعلّا من الخارج، ثمّ اشتراه منه الشيخ عبد الله باحمدين رحمه الله تعالى وأبقاه في محله المذكور بالمُعلّا، ثم نقل المصنع إلى أم الدود في طريق جدة)⁽¹⁾.

وفي بداية العهد السعودي بنيت أربعة مصانع أخرى للثلج وهي⁽²⁾:

1-مصنع الثلج للأخوين الشقيقين الشيخ صدقة والشيخ سراج كعكي، وكان ابتداء تشغيله سنة 1370هـ، بجرول.

2-ومصنع الشيخ عبد الله كعكي، سنة 1375هـ بالمسفلة.

3-ومصنع الشيخ طه خياط سنة 1377هـ بجهة الششة فيما بين مكة ومنى.

4-مصنع الشيخ محمد عمر سعيد، سنة 1379هـ، في حوض البقر بين مكة ومنى.

وهكذا أخذت مصانع الثلج في ازدياد وإطّراد.